اخلاق عرب السودان وعاداتهم وخرافاتهم

من كتاب تاريخ السودان

﴿ اوصافهم الخلقية ﴾ لعرب السودان الاوصاف الخلقية المشهورة للعرب في كل زمان ومكان الاَّ انهم اشد سمرة واقسى شعرًا من عرب الشام ومصر لشدة حرارة بلادهم وكثرة تسريهم من النوبة والسود . واما نساؤهم فيغلب فيهن اللون القمحي او اللون الضارب الى الصفرة كلون تمثال الملكة « آمن ريتس » الايثيوبية في متحف الاثار المصرية بالجيزة

﴿ التشليخ ﴾ ثم ان الشايقية والجعليين والعابدلاب من حضر العرب يشلخون وجوههم بقصد الزينة ولكل قبيلة منهم شلوخ معلومة فللشايقية ثلاثة شلوخ افقية على كل خد وللجعليين ثلاثة شلوخ عمودية على كل خد وللعابدلاَّب على كل خد ثلاثة شلوخ عمودية تحتها شلخ افقي يسمى بالعارض ومن كان وجههُ عريضًا جعلوا لهُ على كل خد اربعة شلوخ بدل الثلاثة والمراة التي لا يعيش لها اولاد تشلخ وجناتهم ايضًا شلوخًا دقيقة كرجل الطير . ومن القبائل التي تتبع هذه العادة فتقلد بها القبائل الثلاث المذكورة : النوبة البرابرة واهل بربر من الحضر والشكرية والضبانية والكبابيش من البادية . اما زمن التشليخ فهو زمن الطفولية للذكور والاناث غير ان الذكور قد لا تُشلخ وجوههم واما الاناث فلا بدَّ من تشليخ وجوههنَّ اذ الشلوخ في الوجه والوشم في الفم معدودة عندهم من الجمال

« فالشاب الجميل » في عرفهم هو من كان مربوع القامة قمحي اللون واسع الصدر مجدول الخصر والذراعين طويل العنق منخفض الكتفين مشلخ الخدين صقيل الانف افلج الثنايا ادعج العينين مفتوح الحاجبين باسم الثغر نير الوجه شريف الخصال

« والمراة الجميلة » هي من كانت مربوعة القامة مع الميل الى الطول صفراء اللون طويلة الشعر غزيرتهُ واسعة الجبين زجاء الحاجبين دعجاء العينين سادلة الاهداب قنياء الانف مع الميل الى التحدب لا كبيرة الفم ولا صغيرتهُ عريضة الشفقة السفلى موشومتها وموشومة اللثة مفلجة الاسنان بيضاءها مشلخة الخدين محفوصة الذقن طويلة العنق منخفضة الكتفين واسعة الصدر ناهدة الثديين رقيقة الخصر قصيرة الظهر مجدولة الساعد والساق رقيقة الاصابع بارزة الردفين مجموعتهما صغيرة القدم رشيقة الحركة لينة الاعطاف اذا رفعت التفتت الى الوراء حتى يصل رأسها الى قدميها واذا مشت تمايلت كالغصن اذا حرَّكهُ النسيم خفيفة الروح باسمة الثغر طلقة المحيا مصونة الحجاب جميلة الحركة اقبلت أو ادبرت

واجمل نساء السودان نساء الجزيرة روى لي بعض الادباء ان فقيهاً من اهل كردوفان يسمى عبد العزيز سمع بكرم الزبير في بحر الغزال فقصده يريد منهُ نوالاً فأمر لهُ الزبير بجارية فلم تعجبهُ وقال " اني قصدتك لجارية عنقها طويل وردفها ثقيل وشعرها غزير وبطنها ضمير وسنّها كالجير وعينها كثب القدير اذا مشت كأنها أمير واذا وقفت تعجب هذا الفقير " واشار الى نفسهِ . فقال لهُ الزبير " عليَّ الطلاق ان هذه الصفات لا توجد حتى في بنات الجزيرة " ثم نادى احد غلمانهِ وقال ائتوهُ بزيتونة فأتوهُ بها وكانت جارية جميلة فأعجبتهُ فقال " قبلت زيتونة الصادقة المامونة اللهمَّ اجعلها كريحة المنتونة " فقال الزبير خذها وخذ الاولى جارية لها فازداد عبد العزيز طمعاً بكرم الزبير وكان بيدهِ ركوة (ابريق ماء من جلد) فقال وهذه الركوة من يحملها لي فدعا الزبير احد عبيدهِ وقال احمل هذه الركوة لسيدك فحملها وذهب الفقيه بالثلاثة شاكراً مسروراً

﴿ اخلاقهم ﴾ اما اخلاق عرب السودان فهي ايضاً الاخلاق المشهورة للعرب في كل زمان ومكان وهي حب الضيافة والكرم والمروءة والشهامة وحب العزو والنجدة والأخذ بالثار ومراعاة الجار واحترام العرض والافتخار بالنسب ونكتهم اكتسبوا من جيرانهم السود العناد واحتقار الموت والصبر على مضض الايام مع شيء من بلادة الطبع

ومن غريب اخلاقهم انهُ اذا اتى الجدب واشتد الجوع اغلق الواحد منهم بابهُ على نفسهِ واولادهِ وانتظر الموت جوعاً ولم يسأل احداً خوفاً من التعيير بذل السؤال . والمريض مهما اشتدّ المهُ لا ينطق بكلمة تدلّ على تألمهِ . وكذلك المضروب لا يبدي اقل توجع مهما اشتد عليهِ الضرب . والمسوق الى القتل لا يبدي اقل جزع او خوف . واذا أظهر المريض اقل تألم او المضروب اقل توجع او المسوق الى القتل اقل جزع او خوف عيَّروهُ وعيروا اولادهُ من بعدهِ الى منتهى الذرّية . ومن هذا القبيل انهُ اذا كان احدهم سائراً في الطريق وحدثت خلفهُ ضوضاء فلا يلتفت برأسهِ الى الوراء كن ذُعر ليرى ما الخبر بل يتحول بجميع جسمهِ دفعة واحد واذا تعرض لهُ كلب فنهشهُ من الوراء فلا يردهُ عن نفسهِ بل يصبر على نهشهِ حتى تراهُ المارَّة فتردهُ عنهُ

ومن اكبر العيوب عندهم الفرار من القتل فاذا ارتكب احدهم جناية تستوجب القتل وقف في مكانهِ ينتظرهُ بالتسليم وكامل الصبر . من ذلك ما روي ان رجلاً من الضباينة يدعى عبد الرسول كان متزوجاً بامرأة يحبها جداً وهي تكره احد اخوالهِ فأوغرت صدرهُ عليهِ فاخذ خنجرهُ وقصد خالهُ فوجدهُ يحلب بقرتهُ فشرع في طعنهِ بالخنجر حتى قتلهُ فامسك برجلهِ اذ

ذاك ومكث ينتظر القتل فحضر اخوة القتيل وبكوهُ ولم يتعرضوا لابن اختهم اذ من العار عندهم ان يثأر الرجل من ابن اخته او عمهِ بسوء فلما حضرت اختهم والدة عبد الرسول صاحت وولولت وحثت التراب على رأسها حزناً على اخيها ونادت يابنها قائلةً ان كنت ابني وابن ابيك فلا تعش بعد قتل خالك فقال عبد الرسول لاخوالهِ اقتلوني بثار اخيكم ولما أبوا اخذ خنجرهُ وطعن بهِ نفسه فوقع ميتاً الى جانب خالهِ فهزّت امهُ يدها فوقهُ ارتياحاً وقالت حقاً انك ابني وابن ابيك ثم حملوا القتيلين ودفنوهما في حفرة واحدة . قلت وهذا الخلق اي عدم الفرار من القتل مروي عن الاثيوبيين القدماء كما سيجيء في التاريخ

هذا ومن المعايب عندهم الفرار من ساحة القتال جبناً او خوفاً فاذا دخل فارسهم ساحة القتال فقتل فرسهُ وانكسر قومهُ فهو لا يقاتل مستقتلاً كمن وقع في فشل او ذعر من الخوف بل يفترش فروتهُ ويجلس عليها الى ان يأتي العدو فيقتلهُ او يأسرهُ وهذا الخلق انما نراهُ في عرب النيل وشرق السودان وامثلتهُ في التاريخ كثيرة اما عرب غربي السودان ففارسهم يقاتل حتى يقتل او يفر

ومما هو مشهور من اخلاقهم فيدل على النجدة واحترام العرض انهُ اذا قصدت امرأة سيداً منهم فكشفت عن رأسها وتشفعت لهُ بأمرٍ وجب عليهِ قضاه ذلك الامر او بذل اقصى الجهد في قضائهِ مهما كلفهُ ذلك من المشقة والعناء

ومما يدلُّ على حبهم للضيافة ان لهم في كل بلدة منزلاً خاصاً بالضيوف يسمونهُ « الخلوة » فاذا نزل فيها ضيوف طبخت كل ربة بيت طعاماً وارسلتهُ اليهم وذهب الرجال للترحيب بهم وتناول الطعام معهم . ذلك في الجزيرة وشرق السودان واما في غرب السودان فكل منزل معدٌّ لقبول الضيوف واقرائهم من طعامهِ الخاص كثروا اوقلوا

وهم يتبارون في افراحهم على الخيل أو الهجن ويرفع السيف بالاصابع الثلاث الاولى وذلك بوضع قبضتهِ بين السبابة والوسطى والضغط على رأسها بالابهام ورفع السيف افقياً . وترى لهم في ساحة كل بلد حجراً يعرف بحجر الصبيان يتناظر الشبان في رفعهِ بكلتا اليدين الى الصدر او الكتف او فوق الرأس ونحو ذلك من المناظرات الرائجة في مصر والشام

﴿ البطان ﴾ ومن اشهر عاداتهم التي اصبحت خلقاً لهم عادة " البطان " وهي من نوع الدوالو عند الافرنج فاذا تنافر شابان لسبب من الاسباب طلب احدهما الآخر للبطان فان ابى عدَّ جباناً ورفضت البنات زواجهُ واذا رضي اخذ كل منهما سوطاً وعمدا الى عنقريب (سرير) جعلوهُ بينهما ووقف الواحد تجاه الآخر ثم خلع كل منهما ثوبهُ وتجرّد الى وسطهِ واجتمع الناس للشهادة فيبدأ احدهما بجلد الآخر سوطاً على ظهرهِ ثم يصبر فيجلدهُ رفيقهُ سوطاً

وهكذا يتناوبان ضرب السياط وهما لا يتحركان من مكانيهما بل لا يحركان كتفاً او جفناً الى ان يقع احدهما من شدة الضرب فيحمله اقاربهُ الى بيتهِ فيزورهُ مصارعهُ ويصالحهُ . وهي عوائد العامة فلا تشترك فيها الخاصة ثم هي محصورة في اولاد ابي مرخة دون غيرهم من عرب السودان ولكن تناول رفيقهم هذه العادة فقاتهم فيها . واهم اسبابها النساء فاذا احب شاب فتاة فزاحمهُ آخر عليها طلبهُ للبطان واخذها الغالب

وقد يكون البطان لمجرد المباهاة بالقوة والجلد على الضرب فيدخل فيهِ اذ ذاك اكثر من اثنين ويكون على ضرب الدلوكة فكل من اراد البطان يأتي الى النساء اللواتي يضربنَ الدلوكة فيهز سوطهُ فوق رؤوسهن ويقول " ابشرنَ باخير انا اخو البنات عشرة " ويقف الكل صفاً واحداً ثم يبرز احدهم فيضرب كل من في الصف سوطاً ويرمي السوط ويعود الى الصف فيبرز آخر فيتناول السوط ويفعل فعل الاول وهكذا حتى يأخذ كل منهم نصيبهُ ضارباً ومضروباً

واذا اعجبت فتاة بشاب من الحضور ووقع حبهُ في قلبها نزعت من معصمها سواراً والبستهُ اياهُ فيأخذ الشاب اذ ذاك سوطهُ ويهزهُ فوق رأسها ويقول " ابشري باخير أنا اخو البنات عشرة " فاذا كان لهُ بين الحضور مناظر في حب الفتاة ورأى سوارها في يدهِ انبرى لهُ وطلب مبارزتهُ فيقف لهُ حامل السوار واضعاً يدهُ اليمنى فوق رأسهِ فيجلدهُ بسوطهِ الى ان يكلَّ فيرمي السوط فيجلدهُ حامل السوار في نوبتهِ بما اعطي من القوة ويقف المضروب في حالة الضرب جامداً لا يتحرك ولا يطرف لهُ جفن كأنهُ صخر اصم ومن بدت عليهِ ظواهر التألم بل من بدت منهُ اقل حركة كهز الكتف او طرف الجفن لبس العار ولم يعد لهُ من البنات نصيب

واذا أحب شاب فتاة ولحظ من احد الحضور ميلاً اليها تأخذهُ الغيرة فيستل سكينهُ من ذراعهِ ويأتي الى حبيبتهِ ويهز السكين فوق رأسها وينادي « ابشرسي باخير انا اخو البنات عشرة » ثم يشرع في تشريط ذراعهِ وصدرهِ الى ان يلطخ رأسها وثيابها بالدم فيأتي احد الحضور ويمنعهُ من ذلك ويأخذ النساء من دمهِ فيلطخن بهِ جبين حبيبتهِ وهي لتايل تيهاً ودلالاً معجبة باستهلاك حبيبها في حبها فتصدقهُ الحب ولا تعود تلتفت الى أحد سواهُ .

وقد رأيت كثيراً من الشبان تجرحي السواعد والصدور بسبب هذا الحب البربري * قيل وعشاق البادية لا يأكلون لحم الغزلان لانهم يشبهون حبيباتهم بها فلا يطيقون ذبحها او تعذيبها واذا راوا غزالة في يد صياد افتدوها بالمال واطلقوا سراحها . وفارسهم يتكنى باسم حبيبتهِ ويتباهى بحبها وعند اللقاء في الحرب يقتحم غمرات الموت بجوادهِ وسيفهُ مسلول في يدهِ وهو ينادي " لعيني فلانة " على ما هو مشهور عند اهل بادية الشام

﴿ طبهم ﴾ وطبهم عرفي يتوارثهُ الخلف عن السلف فاذا مرض احدهم زارهُ اهلهُ وجيرانهُ ووصف لهُ كل منهم علاجاً فيتخذ المريض العلاج الذي يظنهُ انفع لهُ وقد تقدم لنا ذكر اشهر الامراض الخاصة بالسودان وطرق معالجتها عندهم ونذكر تحت هذا الباب علاجهم للجروح وذلك انهم يصبون عليها السمن مغلّى ثم يغمسون قطنة في السمن البارد ويضعونها عليهِ ويربطونها ويكررون ذلك كل يوم مع مراعاة النظافة التامة الى ان تبرأ . هذا في الجروح البليغة . واما الجروح الخفيفة فيعالجونها برشها بالملح او البارود او البن ثم بالقطنة والسمن البارد . وتشفى الجروح بسرعة لا تكاد تصدق . واذا شكا عليلهم ثقلاً في رأسهِ وعينيهِ طلب الحجام فجمهُ في نقرتهِ او في قمة رأسهِ . واهم شرباتهم شربة السمن وهي مقدار رطل مصري من السمن يسخن ويشرب على الريق ومنهم من يكرر ذلك خمسة ايام متوالية ولا يشربون ماء باردًا معها لئلا تولد زحيرًا . وشربة السنامكي يشرب منقوعها مع منقوع التمر الهندي والسكر . وفي جزيرة مغرات تراب معدني يعرف بالجردقة يعالجون بمنقوعهِ المغص ووجع المعدة والامعاء ويمزجون التربية بالبوزة والمقويات ويعالجون بها داء الزحري . واشهر مقوياتهم مزيج مركب من العسل والسمن والثوم والبلح على هذه الصورة : تغلى ثلاثة ارطال عسلاً الى ان تزغو فيضاف اليها ثلاثة ارطال سمنًا بقريًا ويغلى المزيج ثم يجعل فيهِ نصف رطل ثومًا بعد تقشيرهِ ويغلى الى ان يحمر الثوم فيخرج منهُ ويعوض عنهُ بنحو ١٥٠ بلحة من البلح الابريمي بعد نزع نواهُ ويؤكل منهُ على الريق وقبل النوم ولا يؤكل النوم ولا يؤكل معهُ المغلظات ولا اللحم البقري فيكون معهُ عافية وقوة . وهم يعالجون السل والبواسير بهذا المركب : رطل فلفل اسود وابيض ونصف رطل زنجبيلا وربع رطل خولنجان وسدس رطل قرفة ورطلان سكرًا تدق جميعًا وتنخل وتؤخذ مع الشاي سفوفًا على الريق . ويعالجون السل بالشطة وحدها بأخذها مع كل طعام بدل الفلفل . ويعالجون الخنازيري (التهاب الغدد الليمفاوية) بشقها وذرّ الزرنيخ على الجرح

وعندهم كثير من الدجالين يعالجونهم بالتعزيم وكتابة الاحجبة فهي علاج لكل داء عياء وقلما تجد احدًا من اهل السودان ولاسيما النساء الاَّ حاملاً حجابًا او اكثر . ومن علاجاتهم ان يكتبوا سورًا من القرآن على لوح ثم يغسلون الكتابة بماء ويشربون الماء للاستشفاء بهِ

ويهتمّ بالمريض امهُ وزوجتهُ واختهُ وعمتهُ وخالتهُ . وفي سؤالهم عنهُ يقولون عسى طيب النهاردا . المولى يعفوعنهُ ان شاء الله وعند تفشّي امراض وبائية يذبحون الذبائح ويوزعونها على الفقراء والمساكين رجاء رفع الاوبئة عنهم والذين لا قدرة لهم على ذبح الذبائح يلقون الذرة ويوزعونها ويعتقدون ان الوباء يذهب مع البخار الذي يتصاعد منها ولا يسلقونها الاَّ

عند طلوع الشمس وغروبها . وبعد اكل الذرة يطوف الاولاد في الشوارع منادين : " يا لطيف لم تزل الطف بنا فيما نزل " او ينادون " يا خالقنا نحن ضقنا "

ومن عاداتهم عند رؤية الهلال ان يقولوا " اللهم اعطنا خيره واكفنا شره " ثم يوقدون النار امام منازلهم ويهنئون بعضهم بعضاً فيقول الواحد « الشهر مبارك عليكم » فيجيبهُ الآخر " علينا وعليكم " ثم يقول الاول " اعفوا عنا " فيجيبهُ الثاني " عافين عنكم " وهذه عادتهم في ايام المواسم والاعياد وهي من اجلّ عاداتهم

وقد اقتبسوا عادة الاحتفال "بشم النسيم" من المصريين وتقلدوهم في سحق رؤوس البصل وصبغ البيض والاستحمام في النيل والخروج للتنزه في البساتين

ومن عاداتهم في الحروب انهم يأخذون كبار قتلى اعدائهم فيقطعون رؤوسهم ويعلقونها في الشوارع العمومية اشهاراً للنصر . واما السود فيقطعون ايدي قتلى الاعداء ويضربون بها النقارة الى ان تتن فيرمونها . ومن قتل وحشاً مفترساً جرّدوهُ من ثيابهِ والبسوهُ ثياب النساء وحلاهنَّ من عقود الخرز وغيرها وضفروا شعرهُ ضفائر دقيقة كضفائر النساء وحبسوهُ في بيت مظلم سبعة ايام ثم اخرجوهُ الى النيل للاستحمام بهِ ووسموهُ في جبهتهِ او كتفهِ علامة لقتلهِ الوحش المفترس وتغييراً لسحنتهِ ثم اولموا وليمة فاخرة فرحاً بسلامتهِ

" وقيودهم " الشمبة والمكية اخذوها عن السود والزنجير المعروف والقيد وهو على صورة المكية الاّ انهُ اخف منها ولا يقفل بمفتاح

"والعابهم" الخاصة بهم : السيجة وهي تشبه الداما والطاب وغيرهما وعندهم من العابنا الداما والمنقلة والنرد (الطاولة) والدومنو والورق

﴿ خرافاتهم ﴾ واما خرافاتهم فعلى نحو خرافات العرب في مصر والشام الاّ انهم اشد تمسكاً بالخرافات من العرب في كل زمان ومكان . فعندهم السحرة والدجالون والمشعوذون من الرجال والنساء . ومن معتقداتهم السحر والزار والمندل والرمل وضرب الودع والعقدة وكشف الدفائن وتفسير الاحلام والخيرة وكتابة الاحجبة والاصابة باللعين والتشاؤم والتفاؤل ووجود الجن والعفاريت ونحو ذلك من الترهات التي لا طائل تحتها

اما الزار فقد دخل السودان من مصر وكثر استعمالهُ في بلاد سواكن وبربر والخرطوم . واكثر اعتمادهم في تفسير الاحلام على كتاب ابن سيرين . وفي الخيرة على كتاب محيي الدين ابن العربي . واما الرمل والمندل وضرب الودع وكشف الدفائن وعلم التنجيم فاكثر المشتغلين فيهِ هم السحرة والمشعوذون من التكارنة وغيرهم

واما العقدة فيشتغل بها فرع من بشاري الاتبرة يعرف بالقرّب فاذا ارادوا عقد انسان في مكان عزّموا عليهِ فبقي في مكانهِ لا يبرحهُ حتى يحلوهُ واذا وضع امامهُ طعام وعقدوهُ لم يستطع ان يمدّ الى الطعام يدًا . قيل واذا سخر لهم جمل عقدوهُ فيبرك ولا يقوم

السلّ

سببهُ وعلاجهُ

كتب بعض اطباء نيويورك رسالة الى جريدة "السينتفك اميركان" في السل وسببهِ وعلاجهِ فقال فيها ان علم الطب يقول ان وجود باشلس التدرن في الرئتين هو السبب الجوهري في مرض السلّ . واجمع الاطباء طرًّا بعد طول البحث والامتحان على ان العقاقير الطبية لا تفيد في علاج هذا الداء . والظاهر انهم قصروا البحث على اكتشاف واسطة لاهلاك جراثيم السلّ في الرئتين بدلاً من ازالة بعض الاسباب الجوهرية التي تمكن الجراثيم من المعيشة فيهما . واخفاق المساعي التي بذلت لمعالجة هذا الداء يدلُّ على ان الاطباء لم ينبهوا لبعض العلل الاصلية التي يتسبب السلُّ عنها . فقد قال بعض الاطباء ان سوء التغذية سبب السلّ ولكنَّ كثيرين اصيبوا بسوء التغذية وبرّحهم الداء ولم يصابوا بالسل . والحقيقة انهُ لا يصاب احد بالسلّ ما لم تكن رئتاهُ ضعيفتين صالحتين لسكن ميكروب السلّ ونموّهِ

والشروط الصالحة لنمو هذا الميكروب نسيج ضعيف وكمية معلومة من الرطوبة . وسبب اصابة الرئتين بهذا الداء هو ان قمتيهما قلما تمتلئان هواء فيضعف نسيجهما هناك . واذا استقرَّ الميكروب فيهِ فلا يمنع نموَّهُ دواءٌ من الادوية المعروفة الى الآن . اما القوي الرئتين فانهُ يستنشق مكروبات السلّ ولا تضرُّ بهِ

اذًا ليس الميكروب كلَّ السبب في السلّ بل ان بعض السبب ضعف نسيج الرئتين لاسباب عديدة ونموّ الميكروب على اثر ذلك . فلا يوجد السل بلا وجود الميكروب ولا يوجد الميكروب وينمو بلا وجود نسيج ملائم لنموهِ . ولو فرض ان الميكروب وجد تربة ملائمة لنموهِ فان المرض لا يتقدم مالم تحطّ قوة المريض بسبب اجهاد تواهُ العقلية او العصبية فالميكروب اذًا سبب من الاسباب واما السبب الجوهري فهو حالة العقل وما يتبعها من انحطاط قوى العليل وهذا هو الامر الذي لم ينتبه الاطباء لهُ حتى الآن

ولست اريد بهذا القول ان حالة العقل هي السبب المباشر للسل ولكنها الشرط الاهم الذي